جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة: 2020 – 2021

المستوى: ماستر1 السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: مصادر الجزائر في العصر الحديث

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس رحلة محمد الكبير إلى جنوب الصحراء الجزائري لابن هطال

رحلة محمد الكبير إلى جنوب الصحراء الجزائري لابن هطال

تعتبر رحلة محمد الكبير، مرحلة معينة من مراحل التاريخ، و فترة محمودة من فترات الزمن، فقد عاشها المؤلف وقيد لنا حوادثها، و دون لنا ما نستلهم من تاريخ تلك الفترة، ليطلع عليها من يأتي بعدهم من البشر وما دونه الكاتب كان تلبية لسيده باي محمد الكبير، وقد ضبط المؤلف في هذه الرحلة تقدير المسافات بالساعات و الأميال، وذكر لنا أماكن تلك الحوادث بأسمائها المعروفة بين أهلها، واعتمد على سرد الوقائع وذكر الأحداث، فلم يقم بالتحليل والتعليل، ولعل هذا راجع إلى شخصية المؤلف من حيث ثقافته المحدودة، إلا ان أسلوب التعبير جاء مطابقا لعصر المؤلف معبرة لنا عن مدى ثقافته التي كانت فقهية أكثر منها أدبية، ولقد تتبع إبن هطال كتابة كل مراحل الرحلة من خروجهم من المعسكر إلى وصولهم الأغواط، ودون كل حدث له علاقة بهذه الرحلة إلى فترة عودتهم منها ومن هنا يمكن أن نقول ما هي أهم المناطق والحوادث التي قيدها الكاتب في رحلتهم؟

نبذة عن حياة المؤلف:

نسبه: هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان كاتبا ومستشارا لدى الباي محمد الكبير باي الإيالة الوهرانية، ومبعوثا له في المهمات الخارجية، فقد حدثنا أحمد بن علي بن سحنون في كتابه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني أنّ محمد الكبير عندما كان يستعد لفتح وهران، وجه كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي المحلة، مصحوبين بهدايا إلى سلطان المغرب الأقصى، ليسمح لهما بشراء ما يحتاج إليه الباي من أسلحة حربية، ومن هناك توجه أحمد ابن هطال إلى جبل طارق، حيث وجد في انتظاره قنطارين ونصف قنطار من البارود قد اشتراها الباي من الإنجليز، فعبأها وعاد بها إلى بلاده.

وبعد وفاة الباي محمد الكبير ظل ابن هطال مع ابنه عثمان باي يشغل نفس المنصب الذي كان يشغله إبان حياة أبيه، ثم لما توفي الباي المذكور، أصبح ابن هطال كاتبا لدى الباي مصطفى بن عبد الله العجمي رابع بايات الإيالة الوهرانية. استشهد ابن هطال في معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوي وأنصاره، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة 1219 هـ.

محتوى الكتاب:

تعد هذه الرحلة التي يرويها لنا ابن هطال من بين أهم الأعمال التي قام بها محمد الكبير في فترة حكمه، فقد إتجه إلى المنطقة الجنوبية وقام بإخضاع أهلها إلى بايلك الغرب، ورضوا أن يؤدوا الضريبة

السنوية ولقد كان خروج الباي في هذه الرحلة من المعسكر و اتجه إلى الأغواط و قيد لنا كاتبه إبن هطال التلمساني أهم المناطق التي اتجه إليها، وقام بوصفها وأهم الأحداث التي وقعت أثناء هذه الرحلة، مما جعل كتابه الذي دّونه ذا أهمية بالغة، بحيث يمكن أن نستلهم منه أشياء عديدة تفيد كل دارس ومهتم بتاريخ وآثار الجزائر.

بدأ الكاتب نص الرحلة بالثناء والحمد والصلاة على سيد المرسلين محمد عليه السلام، ثم قام بذكر فضائل التاريخ فيقول أنها أجل العلوم قدرا وأكملها محاسن وفخرا إذ به عرفت قدماء الأمم و به حفظت مكارم أخلاقهم والشيم فاشتغلت به علماء كل قطر وصنفت فيه أدباء كل عصر حتى ملئت منه الخزائن وكثرت فيه الرسائل والدواوين، إلا أن الكاتب يرى أن كل واحد يمدح بضاعته ولكل وجهة هو مواليها في هذا المجال.

ثم يعرج الكاتب إلى ذكر خروجهم في هذه الرحلة عام تسعة وتسعين ومائة وألف، وقد قدر مراحل الرحلة بسوائع مبينا منازله ومناهله، ثم يروي الكاتب سبب خروج باي محمد الكبير نحو الجنوب، ويقول أنّه رأى كثرة بلدانها وأعرابها سواء الرحل أو المستقرين، لكن لم تنلها أيدي السلطة، ولم يكن منها للملك مصلحة ولا منفعة معينةوكأنّها أّمة أبقت من أهلها أو حرة نشزت من بعلها، فجمع جموعه وقواده وجيشه وخدامه وخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول بقومه وعسكره من مدينة معسكر التي هي محل وطنه.

وأول موضع نزل فيه هو واد الزلامطة التي تبعد عن المعسكر بست ساعات، ويذكر الكاتبـذأّ ه لما نزل أتاه أهل أنقاذ يطلبون منه التوجه لناحيتهم والذهاب إلى بلادهموعيّ نوا له غنيمة كثيرة يأخذها من تلك الجهة، لكن الباي صرفهم بوجه جميل، ثم أكمل رحلته يوم الجمعة، ونزل واد العبد وجمع في هذا الموضع شيئا كثيرا من الشعير فشرع في تفرقته، وأخذ كل واحد على قدر دوابه وقسم عليهم الإبل ليحملوا عليها زادهم وعلفهم، وارتحل يوم الأحد، ونزل دير الكاف، ويقول الكاتب في هذه المنطقة ورد عليهم مشائخ الأعراب كأولاد خليف والأحرار الشراقة وغيرهم، ويذكر أن الباي محمد الكبير في اليوم الموالي ترك المحلة مقيمة في مكانها.

وركب غازيا على العمور فمشى ثماني ساعات حتى نزل بمنطقة تسمى بالبيضاء، حيث وصفها الكاتب، فقال: " وهذا المنزل ذو آبار كثيرة، وهي سهلة التناول منها ما يكون ماؤها على قامتين، ومنها ما يكون على أقل أو كثير بقليل، إلا أن بعضها أطيب من بعض، فاستقت الناس وعلفت دوابها"،

ويضيف أنّ "أهل الغرابة قدموا عليه في ذلك الوقت بخيلهم التي اشترط عليهم، فقبلها منهم وأمرهم أن يأتوا بخمس مائة جمل، فقبلوا ذلك وطلبوا منه الأمان فأمنهم".

وركب مساء الإثنين وقت المغرب ويذكر ابن هطالأنّ هم مروا بموضع يسمى اللفيحة، فنزل فيه للاستراحة، ثم أتم بقية الليل سيرا، حتى وصل في عين سيدي علي، وقدر هذه المسافة بتسع ساعات، ثم توجه إلى عين سيدي سليمان ينتظر الطوالع، فأتوه بخبر منزل القومأنّ ه خلف الجبللكنّ ه غير الذي أرادهم فجدت الطوالع في غارتها وتفرقت الخيل في نواحيها، حتى أتوه عند خنيق الملح وبينها وبين سيدي سليمان تسع ساعات، فوصف الكاتب الجبل الذي يقع في تلك المنطقة، فيقولنأّ ه كله من الملح إلا أن أكثره يظهر في رأي العين أخضر والبعض منه كشفت ترابه الأمطار وغسلته فصار ملحا أبيض، و في هذا المكان لم يبق واد إلا وفيه طليعة، ولا جبل إلا وعليه كتيبة، وكانت منازل القوم بعضها في الوادي وأكثرها في الجبل، فقصدها الباي وغنم منهم غنائم كثيرة، حتى قال بأنّ الناس استغنوا كلهم من هذه الغنائم.

وبعد هذا الموضع ارتحل إلى الخضراء، ثم توجه إلى تاويلة، وقالنإّ هما مدينتين كل واحدة لها بساتين كثيرة وماء غزير ومزارع، إلا أن تاويلة أكثر عمارة وأوسع مزارع، ويضيف الكاتب أنّ الخضراء لم يجدوا فيها، إلا ما قل من الزرع والتبن، وأما تاويلة فقد وجد الناس فيها من القمح والشعير وغيرهما من الحبوب مالا يحصى عددا إلا الله تعالى، ووجدوا فيها بعض الأمتعة، وأصاب فيها بعض الناس بيتا مملوءا بالرمان لوفرته في هذا البلد، ويذكر أنّ أهلها من الرجال والنساء سمعوا بقدومه قبل وروده عليهم، فهربوا بأنفسهم وذريتهم.

ثم ارتحل إلى منطقة تسمى بالخير، فقام الكاتب بوصف عيونها فقال: "وهذا المنزل فيه ثلاث عيون كل عين منه في غاية ما يكون في صفاء الماء وقوته واتساع الأرض التي تسقى به".

وبعد ذلك انتقلوا إلى مدينة يقال لها تادمامة، فأخذوا ما قدروا على حمله من قمح وشعير وغير ذلك، وبعد ذلك انتقل الكاتب إلى ذكر ما وقع بالمحلة، فيقول: "فبعض أعراب تلك الجهة سرقت المحلة فاختفت جماعة منهم وصاروا يحتالون عليه كيفية الوصول إلى الإبل أو غيرها من دواب المحلة، فإذا ببعض الترك كشفوهم وخربوهم، فأصابوا واحدا منهم فقتلوه وأتوا به إلى صاحب المحلة فأعطاهم دراهم وشكرهم".

ثم ارتحل- ونزل منطقة الخير ووصف الكاتب حالة الطقس في هذه المنطقة، فيقول: "واشتد البرد في هذه الدار ونزل من الثلج ما كانت الناس تظن أنّ مثل ذلك لا يقع في الصحو، لتسويتهم بين سهلها

وجبالها، مع أنّ هذا الجبل ذو برد شديد، وهو مرتفع جدا ومياهه كثيرة فكان له شبه بجبال التل، بل هو أشد بردا منها في بعض الأوقات"، ويضيف الكاتب أنّ "باي محمد عندما رأى الثلج قد كثر ولم ينقطع خاف منه على الإبل، فارتحل".

وسار أربع ساعات ونزل قصر أوفل وعندما نزلت المحلة قصدت القوم هذا القصر لأجل الشعير والقمح وغير ذلك، فوجدوا أهلها هربوا منه، ولم يتركوا شيئا ظاهرا، ويضيف الكاتب أنّ في هذه الديار قدمت عليه طوائف العرب مثل أولاد صالح وأولاد يعقوب القبالة وأولاد يعقوب الغرابة طالبين الأمان لأنفسهم متحملين لما فرض عليهم، فجعل على كل قبيلة شيئا معلوما من الإبل والخيل وأمنهم.

ثم ذهب إلى منطقة تسمى وران على حاشية الوادي من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية يصعد إلى القعدة التي يضرب بها المثل في الصعوبة المحيطة بها سبعة أدوار، ويذكر الكاتب أنّ جميع من في هذه الجهة من الأعراب انحاز إلى هذه القعدة، وامتلأت منهم الاودية والجبال والشعاب ظنا منهم أنّ هم تنجيهم و في الصباح الموالي، قصد باي محمد الكبير هذه المنطقة المحصنة بسبعة أدوار بخيله ورجاله فوقعت بينه وبين أهلها حوادث، فغنم منهم الباي غنائم كثيرة.

وأكمل الباي مسيره ونزل في الدبداب والكرط في جهته الشرقية على نحو ميلين وفوقه حاس الحمار علو نحو ثلاثة أميال، ومن جهة الشرق قرية تسمى بالشارف، وعندما نزل هذا الموضع ذكرت له مدينة تسمى بزنينة قريبة من الدبداب بنحو أربعة سوائع، وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد، ويضيف الكاتب أنّ أهلها أصحاب عرضوا مائة ثوب وأربعة أفراس، فلما رأى محمد الكبير حرصهم على هذا الأمر، وتحملهم ورضاهم بذلك القدر، قال لهم: "إن أتيتم بما ذكرتم ووفيتم بما وعدتم فلكم منى الأمان"، وانصرفوا، وبعث معهم خدامه فلما وصلوا لبلادهم، فكر البايأنّ ه لم يجعل عليهم شيئا معلوما يؤدونه في كل عام، ويأخذ عليهم عهدا في ذلك، فكتب لهم كتابا يعلمهم بما نسيهوأنّ ه هو المراد وبعث به مع بعض قياده، إلأنّ ه وجد نياتهم قد تحولت، وفسدت، فاجتمعوا عليه لقراءة الكتاب، فلما فتحوه وجدوه مخالفا لغرضهم فجعلوه سببا في نقد عهدهم، وقالوا كلهم هيهات هيهات فلا يكون شيء من هذا مدة الحياة ثم أمروا المخازنية بالارتحال عنهم سالمين، وإلا يذهبون نادمين، واشتغلوا بعمارة الأسوار، وبعثوا لمن حولهم من الأعراب والقرى فجاءتهم الأجناد، حتى ظنوأنّ ه لا يصلهم أحد إلى البلاد، ورتبوا أعيان البلاد، و جعلوا الرماة في الأبراج العالية المشرفة على جميع البقاع، وغلقوا أبواب المدينة بالبنيان، وأبواب الدور بالبنيان كذلك، ويفتحون نوافذ يدخلون ويخرجون منها، ويضيف الكاتب أنّ هذه المدينة عظيمة في نفسها محمية بأسوارها ورجالها، ولذلك لم يطمع أحد ممن كان قبله

فيها، ويذكر الكاتب أنّ هذا الخبر شاع بين الناس، وبلغ ذلك لمحمد باي الكبير، فارتحل إليهم وعندما وصل بقرب المدينة بنحو الميل من الجهة الغربية، ترك الناس يبنون أخبيتهم، وقدم الباي ينظر إلى المدينة وكان معه بعض العسكر، فصعد العسكر إلى الجبل وهذا الجبل متصل بالمدينة من الجهة الغربية و الشرقية، وعندما وصل العسكر إلى الموضع الذي يمكن الرمي منه، فقاموا برمي الرصاص على المدينة، إلا أنّ الباي رأى أنّ المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج وبساتينها كلها مدورة بالسور فحيطانها متراكمة وأسورها متخالفة متكاثرة، ويقول أنّ هذه المدينة لم يكن لها سور واحد أو اثنان أو ثلاثة، ويذكرأنّ ها متشابكة وبعضها خلف البعض، فأمرهم أن يجمعوا خدامهم ومواليهم ويحملون الفؤوس، فكلما وصل العسكر لحائط من تلك الحوائط أو برج من تلك الأبراج يقوم أصاحب الفؤوس بهدمه.

ويروي لنا المؤلف ترتيب الجيش في إخضاع هذه المدينة، فيقول: "ولكل طائفة مركزها فكانت الزمالة أسفل الجبل من الجهة القبلية، والترك عن يسارهم في قمة الجبل المتصل بالمدينة، وعن يسار الترك المدافع في أسفل الجبل من الجهة الغربية قبالة باب المدينة من المقابر، وعن يسارهم من الجهة البحرية مخزن الشرق"، ويضيف الكاتبأنّ هم لم يلبثوا غير ساعة حتى بلغوا إليهم، وخالطوهم في جناتهم وحيطانهم، فقتلوا و أسروا منهم، وحال بينهم وبين البغاة كثرة الحيطان، فكانوا مهما نقضوا حائطا إلا وجدوهم تأخروا من ذلك الموضع، وتحصنوا من وراء حائط بعده، حتى قيلأنّ هم هدموا أكثر من خمسين حائطا، وبعد ذلك أراد الباي أن يخضع المدينة دون مواصلة الحرب بينهم، فأرسل لهم رسالة يأمرهم بالطاعة ليؤمنهم في أموالهم و أهليهم، وذهب العلماء إلى قادة الباي يسألونهم في الأمان، فبينوا لهم ما يعلم به السلطانبأنّ هم يدفعون مائة خادم وخمسة آلاف ريال ومائتين بعيرا كلها مختارة من خيار كسب العرب وأربعة أفراس ومِائتي ثوب في كل عام، فقبل لهم ذلك الباي وأمنهم ورجعوا إلى أهلهم مبشرين وقدموا له بعض ما طلبوا منه، فأخذ منهم بعض الرهائن، حتى يدفعوا ما بقي لهم من الضرائب .

يذكر الكاتب اليوم الذي ارتحل فيه فيقول: "وأصبح يوم الاثنين مرتحلا عنهم، ثم مضى حتى نزل الرشاق، وفي هذا الموضع أتوه أهل تاجموت يستشيرونه بالنزول في ديارهم، إلاأنّ ه استعفى من ذلك وطلب منهم أن يدلوهم عن منزل بعيد منهم، وتركوا منهم واحدا ليكون دليلا على المنزل الذي نعتوه وعينوه، وعندما ارتحل نزل في موضع يسمى أمنساج، ويصفه الكاتب ويقولإنّ ه موضع منبسط ذو مياه وعشب، إلا أنّ ماءه بعضه أفضل من بعض، ويضيف الكاتب أنّ المحلة عندما نزلت هرعت

الناس إلى تاجموت منهم بائع ومنهم مشتر، ويقول الكاتب أنّ أهل المدينة قد حصل لهم ربح كثير وفائدة عظيمة.

ثم ارتحل إلى عين الماضي فوصلها في ثلاث ساعات، ووصف الكاتب حالتهم عندما رأوا الباي مقبلا عليهم، فيقول: "فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت وأقبلت فزعت قلوبهم وطاشت عقولهم وغلقوا الديار وعلوا الأسوار وهم مصرخون وبالطاعة وطلب الشريعة معلنون، وعندما نزلت المحلة بقرب الأسوار، خرج إليه أهل المدينة بنسائهم وعلمائهم مقدمون النساء أمامهم، وعندما وصلوا إلى المحلة أذن الباي للعلماء في التقدم، فتقدموا وسلموا عليه وسألوه أن يرفق بهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى التي فرضها عليهم، فأدركت الشفقة والحنانة للباي فجعل لهم لزمة أقل من الأولى، وأعطى لنسائهم سوار فضة لكل امرأة منهن، ورجعوا إلى المدينة فرحين ومستبشرين من تخفيف اللزمة عنهم و الأمان، ويضيف الكاتب أنّ أولاد يعقوب قدموا بإبلهم وخيلهم التي اشترطها عليهم.

ويذكر ابن هطال اليوم والطريق الذي سلكه فيقول: "وأصبح يوم الأحد مرتحلا، وأخذ طريق الرداد، ويقول أنّ هذه الطريق بين جبلين تمر فيه مسيل الماء، وأكملو رحلتهم إلى أن وصلوا منطقة تسمى بالخير وبعد ذلك نزل في منطقة تسمى بعين وزاحة، ويذكر الكاتب بأنّ في هذا المنزل مدينة إلا أنّ ها خالية، ويقول بأن الثلج أصابهم في الطريق وأنه دام حتى غطى السهل والجبل وعجز مكابدته الفرس الضعيف و الجمل، ولما حطت الناس رحالها وبنت خيامها قدمت الأحرار الشراقة بالإبل والخيل التي اشترطها عليهم فقبلها منهم، و أكمل الباي مسيره أربع ساعات، ونزل قرب منطقة تسمى الحليات، فوصف لنا الكاتب حلة المناخ فقال: "فقوي نزول الثلج واشتد البرد وتحرك الريح بعد سكونه وعربد، ويذكر أنّ الباي أقام يومه بذلك المكان ينتظر تبسم الجو، وإذا بريح الصبا هبت وزحزحت السحاب حتى رئي في اتجاه السماء الصحو، وظهرت الأودية والآكام، فأصبح مرتحلا، فتوجه إلى موضع يسمى واد الدهان، ثم إلى دير الكاف، وأتوا أهلها بالعلف والضيافة، ثم ارتحل إلى ضاية سيدي الطيب وبعدها إلى أولاد عوف، وبعد ذلك اتجه إلى غريس، حيث وجد خدامه المخازنية، ومن هذه المنطقة ركب ودخل المعسكر.

وقد تم له ما أراده من الأشياء، وهنا يذكر الكاتب الوقت الذي دخل فيه إلى المعسكر، وكان دخوله يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الثاني قبل وقت العصر، في أول الساعة الثامنة، وقيد لنا الكاتب تاريخ انتهاء هذه الأوراق، حيث قال كمل تقييد هذه الأوراق يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر الله ذي القعدة سنة اثنتين بعد المائتين والألف على يد محمد بن البشير بن محمد التلمساني.

المراجع:

أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الجزائر، دار السردي أبو ظبي، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت, 2004

هجرة بن عامر، الصحراء الجزائرية من خلال رحلتي محمد الكبير وصالح باي خلال القرن 12 هـ -18م (دراسة مقارنة)، مذكرة ماستر، قسم التاريخ ، جامعة المسيلة، 2018.

/HTTPS://WWW.ALUKAH.NET/SHARIA/0/122133

ذ